

أحمد بن حنبل

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أحمد بن حنبل

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي، وشيبان حي من بكر القبيلة المشهورة من قبائل العرب. ولد في ربيع الأول على المشهور سنة ١٦٤ هجرية في بغداد، وكانت أمه قد حملت به في مرو التي كان يقيم فيها أبوه، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته عن ثلاثين سنة تقريباً، وأحمد إذ ذاك صغير لا يدرك شيئاً بدليل أنه نفى رؤيته لأبيه وجده. وكان جده قد انتقل إلى خراسان، وكان والياً على سرخس في العهد الأموي، ثم انضم إلى صفوف الدعوة العباسية حتى أُوذي في هذا السبيل، ويقال: إنه كان قائداً. نشأ أحمد - رضي الله عنه - يتيماً، وقامت على تربيته أمه - صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني - وترك له أبوه بيتاً في بغداد يسكنه وبيتاً آخر يغل غلة ضئيلة. وكان في هذا كشيخه الإمام الشافعي في اليتيم والفقر والحاجة وعلو الهمة. تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ ولكل منهما أم تدفعه إلى التقدم والعلو والزيادة من الخير.

نشأ الإمام أحمد - رضي الله عنه - ببغداد، وتربى فيها تربيته الأولى، وقد كانت بغداد إذ ذاك تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع العلوم والمعارف، ففيها القراء والمحدثون والمتصوفة وعلماء اللغة والفلاسفة وغيرهم، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم من تنوع المسالك وتعدد السبل وتنازع المشارب ومختلف العلوم حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليتمرن على

التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة. وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء حتى إنه ليروى أن الرشيد وهو بالرقعة مع جنده وكان أولئك الجند يكتبون إلى نسائهم بأحوالهم فلا يجد النساء غير أحمد يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود ولا يكتب ما يراه منكرا من القول... شب أحمد على هذا، واستمر في طلب العلم بعزم صادق وجد، وأمه تشجعه على ذلك، وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إذا خشيت عليه الإرهاق، وحكى ذلك أحمد عنها فقال: كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أُمِّي بثيابي وتقول: اصبر حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا، وكان اتجاهه إلى الأخذ عن رجال الحديث. ويروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، وفي تاريخ الحافظ الذهبي قال الخلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها ثم لم يلتفت إليها.

اتجه أحمد إلى كتابة الحديث من سنة ١٧٩ حينما كان عمره ست عشرة سنة، واستمر مقيما في بغداد يأخذ عن شيوخ الحديث فيها حتى سنة مائة وست وثمانين، وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة، ثم إلى الحجاز واليمن وغيرها، واستمر ملازماً لشيخه هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي حتى سنة وفاته ١٨٣.

قال صالح بن أحمد قال أبي: كتبت عن هشيم سنة ١٧٩، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين واثنين وثمانين وثلاث. ومات في سنة ثلاث وثمانين. كتبنا عنه كتاب الحج نحوًا من ألف حديث وبعض التفسير وكتاب القضاء وكتبا صغارا، فقال صالح: يكون ثلاثة آلاف، قال: أكثر، ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز وغيره وقد ذكر ابن كثير تفصيل رحلاته الحجازية في تاريخه البداية

والنهاية جزء ١٠ ص ٣٢٦ وكان من أبرز الشخصيات التي التقى بها الإمام أحمد أثناء رحلاته وفي إقامته، الإمام الشافعي - رضي الله عنه - فقد أخذ عنه، واستفاد منه كثيرا، وكان الشافعي يجله ويقدره ويعول عليه في معرفة صحة الحديث أحيانا، ورشحه الإمام الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد، وقال له: جئت إليك لأقتبس منك العلم تأمرني أن أدخل لهم في القضاء، وكان ذلك في آخر حياة الرشيد، ثم رشحه الشافعي مرة ثانية لقضاء اليمن عند الأمين فأبى أحمد وكان ذلك ١٩٥ هـ.

ودخل الشافعي يوماً على أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله كنت اليوم مع أهل العراق في مسألة كذا فلو كان معي حديث عن رسول الله ﷺ. فدفع أحمد إليه ثلاثة أحاديث فقال له: جزاك الله خيرا. وقال الشافعي لأحمد يوما: أنتم أعلم بالحديث، والرجال، فإذا كان الحديث الصحيح فعلموني إن شاء يكون كوفيا أو شاميا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا، وهذا من كمال دين الشافعي وعقله حيث سلم هذا العلم لأهله؛ وقال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له: وأي شيء بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال (أخبرنا) و(حدثنا). وقال أبو زرعة الرازي:

حفظ أحمد بن حنبل بالذاكرة على سبعمئة ألف حديث، وفي لفظ آخر قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد يحفظ ألف ألف، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

كان الإمام أحمد يقول: - فأتني مالك فأخلف الله على بسفيان بن عيينة؛ وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله على إسماعيل ابن عليّة. وكان ملازما لكتابة الحديث فانشغل بذلك عن كل شيء حتى عن الزواج فلم يتزوج إلا بعد الأربعين. وقيل له: يا أبا عبد الله قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة، فأنا

أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

وقد روى المزني: أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمه وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: - خرجت من بغداد ما خلفت بها أحدا أروع ولا أفه ولا أتقى من أحمد بن حنبل، ولم يزل على ذلك مكبا على الحديث والإفتاء وما فيه نفع المسلمين، والتف حوله أصحابه يأخذون عنه الحديث والفقه وغيرهما، وألف المسند في مدة ستين سنة تقريبا، وكان قد ابتداء بجمعه في سنة ١٨٠ هـ أول ما بدأ بطلب الحديث، وسيأتي الكلام على المسند إن شاء الله تعالى، وألف في التفسير، وفي النسخ والمنسوخ، وفي التاريخ، وفي المقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وألف المناسك الصغير والكبير، وفي حديث شعبة، وألف كتاب الزهد، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة، وكتاب الصلاة، وكتاب السنة وكتاب الورع والإيمان، وكتاب العلل والرجال، وكتاب الأشربة، وجزءا في أصول السنة، وفضائل الصحابة، وله قصائد متناثرة، وأجزاء في بعض الأصول والمسائل، كما نقل عنه مجموعة من المسائل، منها مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود السجستاني صاحب السنن وهي مطبوعة نشرها السيد محمد رشيد رضا بمطبعة المنار وتقع في ٣٢٨ صفحة. وهي أجوبة على بعض المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد في الفقه؛ ومنها مسائل ابنه عبد الله بن أحمد، ومسائل إسحاق بن إبراهيم رواية ابن منصور المروزي وهي مخطوطة وتوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق وغير ذلك من مؤلفاته رضي الله عنه.

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل

الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبتته لنفسه وما صح عن رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد، ومحمد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، على إن أظفري الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام ٢١٢ هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحداً بل ترك الناس أحراراً فيما يذهبون إليه، فلما كان ٢١٨ هـ رأى المأمون حمل الناس وخصوصاً العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من حضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٢١٨ هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحداً يقول بهذه

المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفاضل: يحيى بن معين وعلي بن المدني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالته وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم :- محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفته بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام ٢١٨.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسا مع ابن أبي

دواد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي حضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعاً جليلاً كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطاً، ونصب كرسيًا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذلك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾ [الرحمن: ١]، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى: ﴿يَسَّ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١-٢] ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيده للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ [السجدة: ١٣] الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة ويقول: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو كلام رسوله ﷺ، فقال المعتصم: قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين

فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: انتوني بغيرها.
قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين، والعقaban بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس، فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد إلا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث»^(١). الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم أت شيئا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لأن فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيًا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم وحرضه على إيجاعه بالضرب

(١) صحيح البخاري، كتاب: الديات (٦٤٨٤)، صحيح مسلم، كتاب: القسامة والمحاربتين والقصاص والديات (١٦٧٦)، سنن الترمذي، كتاب: الديات (١٤٠٢)، سنن النسائي، كتاب: تحريم الدم (٤٠١٦)، سنن أبي داود، كتاب: الحدود (٤٣٥٢)، سنن ابن ماجه، كتاب: الحدود (٢٥٣٤)، مسند أحمد بن حنبل (٣٨٢/١)، سنن الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق ابن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت فقالوا صلّيت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة ٢١٨. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما تولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريباً.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة ٢٣٤ وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة ٢١٨ وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلاناً عاماً في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره وردائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونهم بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لوناً آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت

الحركة وأرعى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره فقام إلى الباب ففتحه فإذا به أمام رجلين وامرأتين، أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبى صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبى: نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من أعداء أمير المؤمنين وقد جننا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبى: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلقتني حلفت فأحلفه ابن الكلبى بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبى: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبى ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا.

وتولى ابن الكلبى وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمر المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من على بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك. وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه

والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومنون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا. ومضت الأيام في إدارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنبياء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاد فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن أنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقلت إليه فإذا به يبكي فلما رأني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جنني بالميزان وبالدرهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقتها كلها فلما فرقتها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعاً لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيهِ وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد ابن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسر من رأى ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وألاًّ يحمله على شيء يكرهه. عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع. أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيهِ مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعاراً لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ. وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يوماً مشهوداً في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف

ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بلّيت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئاً منها. أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مصرية خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيراً بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقي رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حيناً حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذلك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأما مرضه ووفاته فإنه مرض تسعة أيام قال ابنه عبد الله: سمعت أبي يقول: استكملت سبعا وسبعين سنة فحم من ليلته وهو محموم يتنفس تنفساً شديداً، وقال صالح: وكنت قد عرفت علته وكنت أمرضه إذا اعتل.

وجاء الفتح بن سهل إلى الباب ليعوده فحجبه وأتى ابن علي بن الجعد فحجبه، وكثر الناس فقال لي: أي شيء ترى؟ قلت: تأذن لهم فيدعون لك قال: أستخير الله تعالى فأذن لهم فجعلوا يدخلون عليه أفواجا، ويسلمون عليه ويرد عليهم بيده، ويسألونه عن حاله، ويدعون له حتى تمتلئ الدار، ثم يخرجون ويدخل فوج آخر، وكثر الناس، وامتلاً الشارع، وأغلقنا باب الزقاق، وجاء رجل من جيراننا قد خضب فسر به، وقال: إني لأرى الرجل يجيء شيئا من السنة فأفرح به فدخل فجعل يدعو له فيقول أبي: ولجميع المسلمين.

وجاء رجل فقال: تطف لي بالإذن عليه فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن استحله. فقلت له، فأمسك فلم أزل به حتى قال: أدخله فأدخلته فقام بين يديه وجعل يبكي وقال: يا أبا عبد الله أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك وإن رأيت أن تحلني فعلت. قال: على الأتعود لمثل ذلك قال: نعم قال: فإني جعلتك في حل فخرج يبكي وبكى من حضر من الناس ثم قال: وجه فاشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين فأخبرته بأني قد فعلت قال: الحمد لله. ثم قال اقرأ على الوصية فقرأتها فأقرها وكنت أنام إلى جنبه فإذا أراد حاجة حركني فأناوله، وجعل يحرك لسانه ولم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها، ولم يزل يصلي قائما أمسكه فيركع ويسجد وأرفعه في ركوعه ولم يزل عقله ثابتًا.

وتسامع الناس بمرضه وكثروا وسمع السلطان بكثرة الناس فوكل ببابه وباب الزقاق المرابطة وأصحاب الأخبار، ثم أغلق باب الزقاق حتى تعطل بعض الباعة، وحيل بينهم وبين البيع والشراء، وكان الرجل إذا أراد أن يدخل إليه ربما دخل من بعض الدور وربما تسلق، وجاء أصحاب الأخبار ففعدوا على الأبواب وجاءه صاحب ابن طاهر فقال: إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك فقال: هذا مما أكرهه وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره، وأصحاب الخير يكتبون بخيره إلى العسكر. والبرد تختلف كل يوم وجاء بنو هاشم

فدخلوا عليه وجعلوا يبكون، وجاء قوم من القضاة وغيرهم فلم يؤذن لهم فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال: ادعوا لي الصبيان بلسان ثقيل فجعلوا ينضمون إليه وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع فقال له رجل: لا تغتم لهم يا أبا عبد الله فأشار بيده فظننا أن معناه إني لم أرد هذا المعنى. وكان يصلي قاعدا ويصلي وهو مضطجع لا يكاد يفتر ويرفع يده في إيماء الركوع واشتدت علته يوم الخميس ووضأته فقال: خلل الأصابع، وثقل ليلة الجمعة فلما كان يوم الجمعة الموافق اثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام ٢٤١ توفي صدر النهار لساعتين منه فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتألت السكك والشوارع وقال صالح: وجه ابن طاهر يعني نائب بغداد بحاجبه مظفر ومعه غلامين معهما مناديل فيها ثياب وطيب فقلت: أقرئ الأمير السلام وقل له: إن أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان يكره، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته.

وقد كانت الجارية غزلت له ثوبًا عشاريًا قوم بثمانية وعشرين درهما ليقطع منه قميصين فقطعنا له لفاقتين وأخذ منه فوران لفاقة أخرى فأدرجناه في ثلاث لفائف واشترينا له حنوطا وفرغ من غسله وكفناه، وحضر نحو مائة من بني هاشم ونحن نكفنه، وجعلوا يقبلون جبهته حتى رفعناه على السرير، وقال صالح: وجه الأمير ابن طاهر فقال: من يصلي عليه؟ قلت: أنا، فلما صرت إلى الصحراء إذا ابن طاهر واقف فخطا إلينا خطوات وعزانا ووضع السرير فلما انتظرت هنيهة تقدمت وجعلت أسوي صفوف الناس فجاءني ابن طاهر فقبض هذا على يدي ومحمد بن نصر على يدي وقالوا: الأمير. فمانعتهم فحيانني وصلى ولم يعلم الناس بذلك فلما كان من الغد علم الناس فجعلوا يجيئون ويصلون على القبر، ومكث الناس ما شاء الله يأتون فيصلون على القبر فكانت الصفوف من الميدان إلى قنطرة باب القطيعة سوى ما كان في الأطراف والحواري والسطوح والمواضع المتفرقة، ومن كان في السفن في الماء وقد حزر من حضر جنازته فكانوا سبعمائة ألف وقيل: ثمانمائة ألف

وقيل: بلغوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وقيل غير ذلك مما يدل على أنهم جمع غفير وكان - رضي الله عنه - يقول في حال صحته: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجناز.

وقد صنفت في ترجمته مصنفات مستقلة منها: المناقب لأبي الفرج ابن الجوزي في مجلد، ومنها لأبي إسماعيل الأنصاري في مجلدين، ومنها لأبي بكر البيهقي في مجلد، ومنها لأبي زهرة مجلد، ومنها لأحمد الدومي في مجلد، وغير ذلك عدا ما في غضون كتب التاريخ والتراجم من ذكر مناقبه، وثناء الناس عليه رحمه الله وسائر أئمة المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).

* * *

(١) المصادر:

- ١ - طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين بن أبي يعلى.
- ٢ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.
- ٣ - المنهج الأحمد للعلمي.
- ٤ - ابن حنبل لأبي زهرة.
- ٥ - أصول مذهب الإمام أحمد للدكتور عبد الله العبد المحسن التركي.
- ٦ - الجزء الأول من المسند طبعة أحمد شاكر.
- ٧ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة لعبد الحليم الجندي.
- ٨ - أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا تأليف أحمد عبد الجواد الدومي.
- ٩ - أحمد بن حنبل والمحنة تأليف ولترنم. باتون ترجمة عبد العزيز عبد الحق.
- ١٠ - الإمام الممتحن أحمد بن حنبل نقلا عن مجلة "المسلمون".
- ١١ - الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأمانى لأحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي.
- ١٢ - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي.
- ١٣ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لعبد القادر بن أحمد بن بدران.
- ١٤ - عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية (٢ / ١٩٩).

الإمام الشافعي

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام الشافعي

إمام العباقرة، وعبقري الأئمة، له في العلم سبب، وفي البيت نسب، وفي المروءة حسب.

سالت قريحته فتفجرت أنهار الحكمة من على لسانه، وسأقت رياح التوفيق سحب علمه فسالت أدوية بقدرها. ذاكرته أصابها وابل فأنتت أكلها ضعفين.

الشافعي أخذ من الأثر روحه، ومن الفقه خلاصته، ومن البيان ناصيته، ومن الشعر حلاوته، ومن المجد ذروته.

قعد للعلماء القواعد فغضب عليه أعداء الشريعة، لأنهم رضوا بأن يكونوا مع القواعد، فخرت به قريش، وتبجحت به العراق، وخرجت إليه مصر، حاور محمد بن الحسن فقطع أزراره، ورد على المريسي فأطفا ناره، وجاور أحمد فشكر جواره.

الشافعي لدنيا العلوم شمس، ولأبدان الأخبار عافية، وللليل المدلهم قمر، في الشرع شعره، في الحق بذله، للأخرة طلبه، لله سعيه، لما خرج إلى البلاد لبست بغداد الحداد وأمست في سواد.

الألفاظ سكر، والقصد نضيد، حفر لحدًا للملاحدة، وعزل في زنزانة الإحباط المبتدعة، ورد الأباطيل في جوه أهل التعطيل، إن سألنا عن أهل الكلام فالجريد والنعال. وأهل السنة: رواد الجنة. والفلاسفة: أهل سفه. ومالك: نجم الممالك. وأحمد بن حنبل: زرع سنبل.

أتاه المال ففر منه إلى العلم، وأتته الدنيا فهرب إلى الآخرة تعلم

الفراسة في اليمن، فكشف أهل الزيغ والأفن، تدجج بالحجج فألحم
الدجاجلة، وصال بالأصول على أعداء الرسول ﷺ.

درس الطب فمرض جسمه، وداوى الناس فزاد غنمه.

المروءة عنده ولولا الشعر بالعلماء يزرى، التواضع: أحب
الصالحين وأست منهم.

ميزة الشافعي: التفرد، ومنقبته التجرد، تفرد في الفهم، فعصر
من زهر الذهن رحيقاً، وتجرد للحق ففسج من بز الشريعة ثوباً
سابقاً.

فاح طيب ذكره في الأنوف، فيا فرحة من شم، وهزم الباطل
فكأنه شم عطر منشم، الشافعي شهاب ثاقب أحرقت به شياطين
الإنس ولهم عذاب واصب.

يا بن إدريس أيا الشهم الأجل أنت سيف الحق في العلياء سلّ.
مسكين من جادل الشافعي وناظره، مسكين من عارضه وكابره،
مسكين من عرفه وما ذاكراه.

درس محمد بن إدريس علوم محمد ﷺ فترك علماً لا يغسله
الماء، ولا تطفئه الريح، ولا يلفه الظلام، ولا ينسيه الدهر، الرسوخ
في يسر، العمق في سهولة، الأصالة في إشراق، البراعة في نصوع.
أهل فارس يعرفونه، وأهل الصين يذكرونه، وأهل الأندلس
يمدحونه، وأهل الباطل يبغضونه.

إذا مرجت الآراء بزغ رأي الشافعي كالنجم الثاقب، إن تكلم
أسكت الخطباء، وإن أنشد صمت الأدباء والبلغاء، أحب الملة
فأمهرها روحه، وعشق العلم فأعطاه عمره، وأخلص للرسالة
ففاضت لها نفسه، فهو عاشق المثل، سامي المقاصد، رجل
المروءات، ناشر السنة بين أهلها، وناصرها على أعدائها، وحافظها
لمحببيها، وشارحها لناقليها.

وإن تفق الأنام وأنت منهم :: فإن المسك بعض دم الغزال ورث أنوار الرسالة، فألف للأمة الرسالة، مات أبوه فكفلته الأم، فقدم للناس كتاب الأم، إذا نطق الشافعي فكأن السيل أقبل، والفجر بزغ، والنور سطع، صحة مخارج، حلاوة لفظ، قوة حجة، براعة دليل، سلامة إنشاء {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الجمعة: ٤].
في الفقه إمام، في النقل حجة، في النسك علم، في اللغة أستاذ، في الذكاء آية.

سرت به أمه من غزة فسبحان الذي أسرى، وعاش في مكة لينفع أم القرى.

الشافعي لم يستند إلى النسب ولو أنه مُطَلَّبِي، ولم يتكل على الجاه فهو أبيّ، ولكن أخذ بأسباب الخلود، وهجر أسباب الفناء، فأمات في حياته النفس الأمارة، وأحيا بوفاته النفس المطمئنة، فنوديت {أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً} [الفجر: ٢٨].

إذا كانت الحياة بالبساط والسياط والسلطة والسطوة فأين أصحابها بعد موتهم {هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨].
عند الشافعي: اتباع الأثر عبادة، الوقوف مع النقل عقل، توقيف الصحبة عقيدة، رد الشبه جهاد، تعليم الناس ربانية، ترك المعاصي هجرة، أهل الحديث رؤوس، المبتدعة سفلة، علم الكلام غي، المنصب ذل، الدنيا دنيئة.

بدا إلى البادية فهذ شعر هذيل، كان رأسا وسواه ذيل، احتسى علم مالك، ومص فهم أبي حنيفة، وجمع بين النثر والشعر، والرواية والدراية، والعقل والنقل.

الشافعي عروبة حجازية، وفصاحة عراقية، ورقة مصرية، أعجب ما فيه روح التجديد في المذهب القديم، وقدم التأسيس في مذهبه الجديد، سخر الشعر للشريعة، والنحو للوحي، والرأي للرواية، والتعليل للتأويل، حملته الهمة فأضناه الطلب، وخلع الدنيا

فليس تاج القبول، خاف الدنيا والدنيا، وجانب الشيطان والشر والشهوة والشبهة.

إن خطب أظن وأطرب، وأتى بكل أطيّب.. وإن أفتى شفى وكفى وأوفى.

فلج خصوم الإسلام، ونكس رايات الأقسام وأبقى ذكره للأيام،
دمغ الضلال، واكتسح الجهال، {وإن كان مكرهم لتزول منه
الجبال} [إبراهيم: ٤٦].

انكسر به ظهر الجبرية، وتلم به قدر القدرية، وأخرجت حججه
شبه الخوارج، واهتز في يده سنان السنة.

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب
بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي،
الإمام العلم أبو عبدالله الشافعي المكي المطلبى الفقيه، نسيب رسول
الله (... وقد ولد الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - بغزة سنة
مائة وخمسين من الهجرة، فلم يكد يبلغ سنتين من عمره حتى حمل
إلى مكة، فنشأ بها، وأقبل على علوم اللغة واعتنى بالأدب والشعر،
فبرع في ذلك، وحُبب إليه الرمي، حتى فاق الأقران، وصار يصيب
من العشرة تسعة.

... والسائب بن عبيد الله المطلبى - الذي نسب إليه الشافعي: أحد
من أسر يوم " بدر " من المشركين، وكان يشبه بالنبي.

... وأمه هي: الشفاء بنت أرقم بن نضلة، ونضلة هو أخو عبد
المطلب، من بني هاشم، ويقال: إنه أسلم بعد أن فدى نفسه. وابنه
شافع، له رؤية وهو معدود من صغار الصحابة. وكانت أم الشافعي
أزدية.

حفظه للقرآن وتلاوته له :

... حفظ الإمام الشافعي - رحمه الله - القرآن، فما من حرف مرَّ
به إلا وهو يعلم معناه والمراد منه.... وقال ابن عبد الحكم: سمعت

الشافعي يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وقال: قرأت على شبل، وقال شبل: قرأت على عبد الله بن كثير، وهو على مجاهد، ومجاهد على ابن عباس.

... وقال الكرابيسي: بثُّ مع الشافعي غير ليلة، وكان يصليُّ نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلاَّ سأل الله، ولا يمرُّ بآية عذابٍ إلاَّ تَعَوَّذَ منها.

شيوخ الشافعي:

... تتلمذ الإمام الشافعي لعدد غير قليل من الشيوخ فأخذ عليهم وروى عنهم كثير من علومه، نذكر منهم:

مالك بن أنس:

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة ٩٣ هـ من الهجرة، وهو شيخ العلماء وأستاذ الأئمة، وكان بيته بيت علم، فجدّه الأعلى أبو عامر صحابي جليل، وجدّه الأسفل مالك من كبار علماء التابعين، تبحر في علم الحديث والتفقه في الكتاب والسنة، ويعد الشافعي ممن أخذ عنه العلم. وقد عرض عليه "الموطأ" حفظاً. توفي في الليلة الرابعة عشرة من ربيع الثاني سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع، وله من العمر ٨٦ سنة.

الماجشون:

عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي، له كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب، وكان الماجشون أصبهانياً نزل المدينة وكان من العلماء الربانيين. توفي سنة ١٦٤ هـ.

مسلم بن خالد الزنجي:

... أبو خالد المخزومي المشهور بالزنجي فقيه "مكة"، تفقه وأفتى وتصدر للعلم وهو الذي أذن للشافعي في الإفتاء، حدث عنه الشافعي وكان فقيهاً، عابداً، يصوم الدهر. مات سنة ١٨٠ هـ. وله ٨٠ سنة.

إبراهيم بن سعد:

إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، شيخ الشافعي الحافظ الإمام أبو إسحاق الزهري المدني، ولي قضاء المدينة وروى عنه من الكبار شعبة والليث بن سعد وعاش ٧٥ هـ سنة. توفي سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة.

إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الفقيه:

أبو إسحاق الأسلمي المدني أحد الأعلام، روى عن الزهري وخلق كثير حدث عنه الشافعي وابن جريج وهو من شيوخه قال عنه الشافعي: كان قديراً، وقال عنه أحمد بن حنبل: قدرني جهمي كل بلاء فيه ترك الناس حديثه. توفي سنة ١٨٤ هـ.

سفيان بن عيينة:

سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ أبو محمد الهلالي الكوفي، محدث الحرم. ولد سنة سبع ومائة، وطلب العلم في صغره، حدث عنه الشافعي والزعفراني والرملي، وخلق لا يحصون، وكان إمام حجة حافظاً واسع العلم كبير القدر، وقد حج سبعين سنة. قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. مات سنة ١٩٨ هـ.

إسماعيل بن جعفر:

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري قارئ أهل المدينة ومؤدب على بن المهدي ببغداد تولى إمارة الحج غير مرة، وكان أسن من الرشيد بشهور..

تلاميذ الشافعي:

كثر تلاميذ الإمام الشافعي ممن رووا عنه ونهلوا من فيض علمه نذكر منهم:

أبو بكر الحميدي:

هو أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي المكي،

المعروف بالحميدي، رحل مع الشافعي من مكة إلى مصر ولزمه حتى مات، ورجع مكة يفتي إلى أن توفي بها سنة ٢١٩هـ. روى عن الشافعي أن الشعرة الواحد يجب فيها ثلث مد، وفي الشعرتين ثلثان في الحج.

أبو عبيد القاسم بن سلام:

له صحبة مع الشافعي وكتب كتبه وكان بغداديا الأصل وله اختيار ولم يُجَرِّد للشافعي. توفي بمكة سنة ٢٢٤هـ وهو ابن ٧٣ سنة. أحمد بن حنبل:

هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، إمام أهل السنة يقول فيه الشافعي: " خرجت من العراق، فما تركت رجلاً أفضل، ولا أعلم، ولا أروع، ولا أتقى من أحمد بن حنبل. ولد في مدينة بغداد سنة أربع وستين ومائة، كفلته أمه بعد وفاة والده، وأخذ العلم من يحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، والشافعي، وغيرهم وقد كان الشافعي يُعَظِّمُه. توفي سنة ٢٤١هـ، وله من العمر ٧٧ سنة.

من أبرز تلاميذ الإمام الشافعي:

لقد اشتهرت جلاله الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق واعترف له العلماء، وعظمة مكانته عند الخلفاء وولاية الأمر، وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار والأئمة والأخيار، وتمسكوا بطريقته ومنهم:

البُويطي:

... هو يوسف بن يحيى القرشي البُويطيُّ المصري الفقيه، صاحب الشافعي، وكنيته أبو يعقوب.

... قال الذهبي - في " السير " -: الإمام العَلَّامة سيِّدُ الفقهاء، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مُدَّةً وتخرَّجَ به، وفاق الأقران.

... روى - رحمه الله - عن: عبد الله بن وهب، ومحمد بن إدريس الشافعي.

... ولم تذكر الكتب التي ترجمت له سِوَى ابن وهب، والشافعي من شيوخه.

ذَكَرُ مَنْ وَثَّقَهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

... قال ابن أبي حاتم: سئل عنه أبي؟ فقال: صدوق.

... وقال ابن عبد البر: كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة، صليبا في السنة، يردُّ على أهل البدع، وكان حسن النظر.

وقال الذهبي: مات الإمام البويطي في قيده مسجوناً بـ "العراق" في سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وممن أرَّخ وفاته في هذه السنة أيضاً الخطيب، وقال: هذا القول في وفاته أصح، وقد ذكره هكذا غير واحد.

أبو ثور:

إبراهيم بن خالد الكلبى البغدادي من رواة القديم، قال أحمد بن حنبل: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، قال وهو عندي كسفيان الثوري، مات سنة أربعين ومئتين، وكان أبو ثور على مذهب الحنفية، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه ويسر علمه. وله مصنفات كثيرة يذكر فيها الاختلاف ويحتج لاختياره.

حرملة بن يحيى:

... هو حرملة بن يحيى بن عبدالله بن حرملة المصري التيجيبي صاحب الشافعي، كان إماماً حافظاً للحديث والفقهاء، ولد سنة ست وستين ومئة، صنف المبسوط والمختصر المعروف به، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين....

المزني:

... أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني،

المصري. ولد سنة خمس وسبعين ومائة كان إماماً ورعاً وقال الشافعي فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه، صنف المبسوط والمختصر والمنثور والترغيب في العلم وغيرها. وصنف كتاباً مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعي. توفي سنة أربع وستين ومائتين. ودفن بالقرب من قبر الإمام الشافعي.

الزغفراني:

... أبو علي الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزغفراني، كان إماماً في اللغة، وكان يذهب إلى مذهب أهل العراق فتركه وتفقه للشافعي. قرأ على الشافعي الكتاب كله نيفاً على ثلاثين جزءاً. وكتبه عنه، وهو الكتاب المعروف بالبغدادي وبالقديم، ويقال لكتابه المصري الذي كتبه بمصر الجديد. مات سنة ست وستين ومائتين.

الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ:

... هو: الربيع بن سليمان بن عبد الجَبَّار بن كامل المرادي، مولاهم، المصري المؤدّن، صاحب الإمام الشافعي، وراوي كتبه.... قال الإمام الذهبي: صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المؤدّنين بجامع "الفسطاط"، ومستلمي مشايخ وقته.

وقد أجمعت المَصَادِرُ التي ترجمت له على أن كنيته: أبو مُحَمَّدٍ. وكان مَوْلَدُهُ - كما ذكر الإمام الذهبي رحمه الله في "السير" - في سنة أربع وسبعين ومائة، أو قبلها بعام، وتوفي يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين.

روى عن عَدَدٍ كبير من الشيوخ. وخلق كثير.

والحسين بن علي الكرابيسي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وقد سبق الحديث عنهما.

مكانته العلمية:

... حاز الإمام الشَّافعي (من أَلْوَانِ الثقافة وفنون العلم والمعرفة،

ما لم يظفر به أحد غيره من الأئمة؛ لأمرين:

... أحدهما: أصالة نظره وعمق تفكيره ووفور عقله، الأمر الذي ساعده على الإفادة مما يحيط به، ولقد صدق القاسم بن سلام، حيث يقول: " ما رأيت رجلاً قطُّ أعقل من الشافعي ".

... وثانيهما: كثرة أسفاره إلى " اليمن "، و" العراق "، و" مصر "، واتصاله المستمر بالعلماء، حيث نهل من علومهم ومعارفهم شيئاً عظيماً.

... وكانت نتيجة الترحال أن نال ثقافةً واسعةً في اللغة، والأدب، والحديث، والفقه على طريقتي أهل الحديث وأهل الرأي؛ كما أنه نال ثقافة اجتماعيةً اكتسبها من مشاهدة حياة البدو في البادية، والحضارة الأولى في " الحجاز "، و" اليمن "، والحضارة العريقة المعقدة المركبة في كل من " العراق " و" مصر ".

أصول المذهب الشافعي:

... كان الإمام الشافعي في بداية طلبه للعلم يعد نفسه تلميذاً للإمام مالك بن أنس، وأحد رجال مدرسته، إلى أن قَدِمَ " العراق " للمرة الثانية، فأسس هناك مذهباً مستقلاً.

... وقد دَرَسَ الشافعي مذاهب المتقدمين، وبحث بدقة متناهية مسلك المدرستين: مدرسة الحديث، ومدرسة الرأي، وأحدث بعد هذا التمحيص طريقة نقدية جديدة جمعت بين مميزات المدرستين؛ وبذلك كَوّن مركزاً وسطاً بين أهل الرأى، وأهل الحديث.

أصول المذهب:

... قال الإمام الشافعي في " الأم ": " الأصل: قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله، وصحَّ الإسناد به - فهو المنتهى، والإجماع أكبر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره، وإذا احتَمَلَ المعاني فما أشبه ظاهره أو أُلهاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحُّها إسناداً أو أُلهاها، وليس المنقطع بشيء ما

عدا منقطع ابن المسيّب، ولا يقاس أصلٌ على أصلٍ، ولا يقال للأصل: لِمَ وكيف؟ وإنما يقال للفرع: لِمَ؟ فإذا صحَّ قياسُه على الأصل صحَّ وقامت به الحجّة ”.

... ويؤخذ من هذا الكلام أن أصول مذهبه: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس؛ لكن انفرد بمسالكٍ مُنفرد في طريقة العمل بكل منها، وهذا لا يعني الحصر؛ بل قال بحجّية قول الصحابي، والعرف، والاستصحاب، أيضاً.

... وعن أصول مذهب الشافعي يقول الأستاذ الشيخ على الخفيف:

... وقد امتاز مذهب الشافعي بأصوله التي ذكرها صاحبه، ففصلها، وناضل عنها في كتابه الأم، والرسالة التي وضعها في هذا الغرض، فكانت أصولاً لمذهبه مقطوعاً بها غير مظنونة، مروية عن الشافعي نفسه، غير مستنبطة من النظر في مذهبه.

... وفيما يلي نشير إلى أصول المذهب الشافعي في إيجاز:

١- الكتاب: وقد عدّ الشافعي (كغيره من الفقهاء، والقرآن المصدر الأول للتشريع لا يُقدم عليه سواه، فهو المنبع الأول لاستقاء الفقه، والشافعي يحتج بظاهر الكتاب، ما لم يقدّم دليل على أن المراد بالآية غير ظاهرها

٢- السُّنة: ذهب الإمام الشافعي إلى القول بحجية خبر الواحد ودافع عن العمل به دفاعاً شديداً، ما دام راويه ثقة ضابطاً، وما دام الحديث متصلاً برسول الله، وأخذ على الحنفية أنهم قدموا القياس عليه.

... ويرى أن السنة إذا صحّت يجب اتباعها اتباع القرآن، لكن لا يرى العمل بالمرسل إلا بشروط: كأن يكون من مراسيل سَعِيد بن المسيّب.

٣- الإجماع: ويعني عند الشافعي: عدم العلم بالخلاف على أساس

أن العلم بالاتفاق غير ممكن.

... وقد ردّ الشافعي ما ذهب إليه شيخه الإمام مالك، من اعتباره إجماع أهل " المدينة " حجة، وأصلاً من أصول الفقه.

٤- قول الصّحابي: احتج الشافعي - في قوله القديم - بأقوال الصّحابة، أمّا في الجديد: فالمعروف عنه - كما يقول كثير من أصحابه - أنه لم يحتج به على أساس أنه نقل أقوالاً لهم ثم خالفها.

... وقد ذهب ابن القيم إلى خلاف ذلك، حيث قال: إن كلام الشافعي - في الجديد - : " العلم طبقات: الأولى: الكتاب والسنة، والثانية: الإجماع فيما ليس كتاباً ولا سنة، الثالثة: أن يقول صحابي، فلا يعلم له مخالف من الصحابة، الرابعة: اختلاف الصحابة، الخامسة: القياس " - يدل على أن قول الصحابي حجة وفي قوله الجديد أيضاً.

... قال الإمام في " الأم " : ما كان الكتاب والسنة موجودين، فالعذر عن سماعهما مقطوع إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك، صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله أو واحدٍ منهم، ثم كان قول الأئمة: أبي بكر، أو عمر، أو عثمان - إذا صرنا فيه إلى التقليد - أحب إلينا؛ وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل على أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة، فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزمه الناس، ومن لزم قوله الناس كان أشهر ممن يفتي الرجل أو نفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يُفتون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تُعنى العامة بما قالوا عنايتهم بما قال الإمام.

٥- القياس: كان الشافعي أول من تكلم في القياس، وضبط قواعده، وبيّنّها؛ فهو وإن لم يعرفه بالحد، ولا بالرسم التام - إلا أنه وضحه بالأمثلة، والتوضيح بالمثل من قبيل الرسم الناقص.

... وقد وقف الشافعي موقفاً وسطاً بين تشدّد مالك، وتوسّع أبي حنيفة، واشترط في الأخذ به: أن تكون علته منضبطة، ولا يكون في

المسألة حديثٌ صحيحٌ، ولو كان من أخبار الأحاد.

٦- الاستصحاب: عمِل الإمام الشافعي بالاستصحاب، وعده من مصادر الأحكام.

٧- العرف: تأثر فقه الشافعي بالأعراف السائدة في " مصر " في عهده؛ فرجع عمّا بناه من أحكام فقهية على أعراف وعادات العراقيين؛ وهذا يعني أنّ الشافعي يعتبر العرف مصدراً من مصادر الأحكام.

٨- الاستحسان: لم يأخذ الشافعي - كما هو المعروف عنه - بالاستحسان، بل نَقِم عليه وعلى من يقولُ به، حتى قال: " من استحسَن فقد شرَّع ".

... غير أن الشافعي بني بعض المسائل الفقهية على الاستحسان، منها قوله: أستحسن أن تكون المتعة في حق العقيم ثلاثين درهماً، وقوله: أستحسن أن يؤجّل الشفيع ثلاثاً.

... وفي السارق قال: إذا أخرج يده اليسرى بدل اليمنى فقطعت، القياس أن تقطع يمينه، والاستحسان ألا تقطع.

... وبناء على ذلك فإن الاستحسان الذي حمل عليه الشافعي وأنكره هو ما يستحسنه الناس ويشتهونه بغير دليل، وهذا ما لم يقل به أحد من المجتهدين.

كان الشافعي يقضي الساعات الطوال في دروس متصلة، ينتقل من علم إلى علم، يجلس في حلقة إذا صلى الفجر، فيأتيه من يريدون تعلم القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء طلاب الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا انتهوا جاء بعدهم من يريدون تعلم العربية والعروض والنحو الشعر، ويستمر الشافعي في دروسه من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر!!

وكما كان الشافعي فقيهاً ومحدثاً كبيراً، كان أيضاً شاعراً رقيقاً فاض شعره بالتقرب إلى الله، فما هو ذا يستغفر الله ويدعوه قائلاً:

ولما قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي :::: جعلتُ رجائي نحو عفوك سُلَّماً
تعاظمني ذنبي فلما قرئته :::: بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

ويوصي الشافعي من خلال شعره بالأ نرد على السفية قائلاً:
إذا نطق السفية فلا تجبه :::: فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرجت عنه :::: وإن خليته كمدا يموت
ويصور عزة نفسه، وإن كانت ثيابه قديمة بالية، فتحتها نفس أبية
عزيزة غالية لا مثيل لها فيقول:

على ثياب لو يباع جميعها بفلس :::: لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يُقاسُ ببعضها :::: نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
ومرض الشافعي، وقربت ساعة وفاته؛ فدخل عليه أحد أصحابه
وقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً،
ولإخواني مفارقاً، ومن كأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً،
وعلى الكريم سبحانه واردة، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى
الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها.

ومات الشافعي ليلة الجمعة من آخر رجب عام ٢٠٤هـ، وبعد
صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي (بمصر) مختربة
شوارع الفسطاط وأسواقها، حتى وصلت إلى درب السباع؛ حيث
أمرت السيدة نفيسة - رضي الله عنها - بإدخال النعش إلى بيتها، ثم
نزلت إلى فناء الدار وصلت عليه صلاة الجنازة، وقالت: رحم الله
الشافعي إنه كان يحسن الوضوء.. (١)

(١) المصدر: النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

الإمام أبو حنيفة

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام أبو حنيفة

... ليس من السهل الميسور على الباحث أن يرسم لأبي حنيفة صورة صحيحة صادقة يرضى عنهما الباحث إذ إن أتباع مذهبه والمتعصبين له قد أفرطوا في تقديره، وغالوا في الثناء عليه، والطاعنين فيه قد بالغوا في انتقاصه، فرموه بالزندقة، ونسبوه إلى البدعة، واتهموه بالخروج عن الجادة والرغبة في إفساد الدين وإهمال السنة.

... ولا ريب أن هذه الآراء المتناقضة بين محبِّ غالٍ ومبغضٍ قالٍ لئتوه في غمرتها عقل الباحث، ويتفرق ذهنه، ويتوزع مجهوده في تحصيلها وبيان الحق الصحيح منها وتمييزه عن الكاذب الزائف. ... تلك كلمة موجزة رأيت أن أصدر بها ترجمتي لأبي حنيفة؛ إذ لا سبيل إلى إغضاء الطرف عن هذه الحقيقة أو إهمالها.

... ومهما يكن من أمر فسأحاول استخراج ترجمة لهذا الإمام الجليل من ركام هذه الأخبار المضطربة، وأنأى ما استطعت عن مواطن الخلاف ومواضع النزاع التي خاض فيها المترجمون وكُتِّبَ الطبقات وأصحاب المناقب.

اسمه ونسبه ومولده:

... هو النعمان بن ثابت بن زوطي بن كاؤس بن هُرْمَز بن مرزبان ابن بهرام التيمي.

... ولد أبو حنيفة رضي الله عنه بمدينة الكوفة سنة ثمانين من الهجرة النبوية، وهي الرواية الصحيحة المجمع عليها بين المترجمين

والمؤرخين.

... وقد أجمع الثقات على أن أبا حنيفة فارسي النسب، فأبوه هو ثابت بن زوطي الفارسي، وقد كان جده من أهل كابل، وقد أسر عند فتح العرب لفارس، واسترق لبني تيم بن ثعلبة، ثم أعتق، فكان ولاؤه لهذه القبيلة، وكان هو تيمياً بهذا الولاء.

... ولم يكن أبو حنيفة يحفل بمسألة الأنساب ولا يلقي لها بالاً، ولا كان حريصاً على نفي الرق عن جده، بل كان يقول: أعلم أن التقوى أعلى الأنساب وأقوى أسباب الثواب، ولذا عد رسول الله ﷺ سلمان الفارسي رضي الله عنه من أهل البيت، فقال: «سلمان منا آل البيت»... وقد نشأ أبو حنيفة بالكوفة وأقام بها أكثر حياته، وقد نشأ في بيت إسلامي خالص يحفظ للدين حرماته، ويعرف له قواعده وأصوله.

... وورث أبو حنيفة عن أبيه مهنة التجارة فكان يغشى الأسواق قبل غشيانه مجالس العلماء وحلقات الدرس، وقد عرف طول حياته بأنه يحترف التجارة ويتكسب منها.

وأقبل أبو حنيفة في نشأته الأولى على القرآن حفظاً وقراءة، ورؤى أنه كان يختم القرآن ستين مرة في رمضان، وقد جاء من عدة طرق أنه أخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القراء السبعة... وقد غصَّ العراق قبل الإسلام وبعده بالملل والنحل؛ حيث كانت مهذاً لمدينتي وحضارت قديمة وكان العراق بعد الإسلام مزيجاً من أجناس مختلفة، وكانت فيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد: فيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة. وكان فيه في عصر أبي حنيفة تابعون مجتهدون التقى بهم، ومن قبلهم كان فيه عبد الله بن مسعود الذي بعثه عمر إليهم ليعلمهم الفقه، ويهديهم للسبيل الأقوم، ثم كان فيه إمام الهدى على بن أبي طالب، رضي الله عنه.

... فتحت عين أبي حنيفة فرأى علم العراق وآثار الصحابة فيه، وأشع عقله، فانبتقت ينابيع فكره، فأخذ يجادل مع المجادلين، ونازل بعض أصحاب النحل بما توحى به السليقة المستقيمة.

... وقد لفت ذكاء أبي حنيفة ونبوغه المبكر أنظار العلماء.

... فيروى عنه أنه قال: مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني، فقال لي: إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، فقال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إلى العلماء، فقال لي: لا تفعل، عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة. قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله.

لقد نهل أبو حنيفة من ينابيع الثقافة الإسلامية التي أتاحت له آنذاك كافة، فألمَّ إماماً جيداً بالحديث، وعرف قدراً كبيراً من النحو والأدب والشعر، وخاض في مسائل الاعتقاد مجادلاً الفرق الكلامية المنتشرة في العراق، وكان يرحل لهذه المناقشة إلى البصرة، وكان يمكث بها أحياناً سنة لذلك الجدل، ثم انصرف بعد ذلك إلى الفقه، وإن كان يناقش أحياناً في مسائل العقيدة إذا عرض له ما يقتضي ذلك.

شيوخ أبي حنيفة:

... نشأ أبو حنيفة في بيئة علمية ممتازة، مشحونة بكثير من العلماء في مختلف العلوم الإسلامية. ولا ريب أن أبا حنيفة قد جالس علماء عصره فأخذ عنهم، وتلمذ عليهم، وألم بمناهج بحثهم، ثم اصطفى من بينهم فقيهاً لازمه ملازمة تامة حيث وجد فيه ما يرضى نزوعه العلمي ومشربه العقلي، وهذا الفقيه هو حماد بن أبي سليمان الذي انتهت إليه مشيخة الفقه العراقي في عصره. وإلى ذلك يشير أبو حنيفة بقوله: " كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله، ولزمت

فقيهاً من فقهاءهم”.

... وقد نشأ حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة بالكوفة، وأخذ الفقه عن إبراهيم النخعي والشعبي، وهذان الفقيهان الكبيران تلقيا الفقه عن شريح وعلقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع. وقد أخذ أولئك الفقه عن الصحابييين الجليلين: عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وهما عماد الفقه الكوفي.

... وقد لزم أبو حنيفة حماد بن أبي سليمان ثماني عشرة سنة، وأخذ عنه فقه أهل العراق، وهو خلاصة فقه علي وعبد الله بن مسعود، كما تلقى عنه فتاوى إبراهيم النخعي، قال الدهلوي: إن المعين للفقه الحنفي هو أقوال إبراهيم النخعي.

... ولم ينقطع الإمام أبو حنيفة عن الدرس والتحصيل بعد وفاة شيخه الكبير حماد بن أبي سليمان سنة ١٢٠هـ، بل تابع سعيه الدءوب في طلب العلم مستصحباً الأثر القائل: ” لا يزال الرجل عالماً ما دام يطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل”.

... ففي مكة أخذ أبو حنيفة علم ابن عباس عن عطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولاة، كما أخذ علم ابن عمر وعلم عمر عن نافع مولى ابن عمر.... وقد نهل أبو حنيفة من علوم أئمة الشيعة فأخذ عنهم ودارسهم غير مقتصر على فقهاء أهل السنة، فقد التقى أبو حنيفة بأئمة الشيعة: زيد بن علي، ومحمد الباقر، وأبي محمد عبد الله بن الحسن، وتتلذذ لهم وأخذ عنهم.

... على هذا النحو يمكن أن نقول: إن أبا حنيفة تلقى فقه الجماعة الإسلامية بشتى منازعها، وإن كان قد غلب عليه تفكير أهل الرأي، بل عدَّ شيخ أهل الرأي غير مدافع.

تلاميذ أبي حنيفة:

ليس لأبي حنيفة كتاب في الفقه رتب أبوابه وهذب مادته وعقد نظامه، وهذا أمر يستقيم مع الواقع ويتفق مع روح العصر؛ إذ لم

تنتشر حركة التأليف والتصنيف إلا بعد وفاة أبي حنيفة أو في آخر حياته.

وقد كانت السبيل إلى معرفة آراء أبي حنيفة والوقوف على اجتهاداته تلاميذه؛ إذ كانوا يدونون آراء شيخهم ويقيدونها، وربما كان يملئها عليهم.

فليس لنا أن نعرف فقه أبي حنيفة إلا عن طريق أصحابه وتلاميذه، وسوف نشير فيما يلي إلى بعضهم ممن قاموا بتدوين فقهه، سواء أكانوا ممن طالت ملازمتهم كمحمد بن الحسن، أم كانوا ممن لم تطل ملازمتهم، ما دام لهم أثر في نقل فقهه إلى الأجيال اللاحقة.

زفر بن الهذيل:

زفر بن الهذيل الحنفي أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ابن قيس بن منجور بن جندب ابن العنبر بن عمرو بن تميم بن مر.

وقد أخذ زفر عن أبي حنيفة فقه الرأي حتى غلب عليه، وكان أحد أصحاب أبي حنيفة قياساً.

قال الخطيب البغدادي: روى أن المزني جاءه رجل، فسأله عن أهل العراق قال: ما تقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم، قال: فأبو يوسف؟ قال: أتبعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعاً، قال: فزفر؟ قال: أحدهم قياساً. توفي سنة ١٥٨ هـ عن ثمان وأربعين سنة، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

أبو يوسف:

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسباً، والكوفي منشأً وتعلماً ومقاماً، وكان ميلاده سنة ١١٣ هـ، وتوفي سنة ١٨٢ هـ.

وقد لازم أبو يوسف أبا حنيفة وانقطع إليه، حتى صار أعظم

أصحابه غير مدافع.

محمد بن الحسن الشيباني:

نسبة إلى شيبان بالولاء لا بالنسب الأصيل. وكنيته: أبو عبد الله. ولد سنة ١٣٢هـ، ومات سنة ١٨٩هـ، أي أن سنه كانت حين مات أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة. فلم يقدر له أن يصحب أبا حنيفة زمناً طويلاً، بل أخذ أكثر دراسته الفقهية عن أبي يوسف بالعراق، كما سمع من الثوري والأوزاعي، ورحل إلى الإمام مالك بالمدينة فأخذ عنه فقه الحديث والرواية.

الحسن بن زياد اللؤلؤي:

وهو من فقهاء المذهب الحنفي الذين رووا آراء أبي حنيفة، وقد توفي سنة ٢٠٤هـ.

ويقال: إنه تتلمذ لأبي حنيفة وكان من أصحابه. وقد اشتهر برواية الحديث، فقال عن نفسه: كتبت عن ابن جريج اثني عشر ألف حديث، كلها يحتاج إليها، كما اشتهر برواية آراء أبي حنيفة.

وهؤلاء الأربعة الذين ذكرناهم كانوا من أصحاب أبي حنيفة، وتلقوا عنه مباشرة، وثمة فقهاء أخذوا عن هؤلاء الصَّحْب، ليس هذا محل ذكرهم.

مكانته العلمية:

... لأبي حنيفة مكانته العلمية التي لا ينكرها إلا مكابر، والتي أقرَّ له بها العلماء جيلاً بعد جيل؛ فيقول عنه معاصره الفضيل بن عياض: "كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً، معروفاً بالفقه... معروفاً بالأفضال... صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار".

... وكثر مدح المادحين له حتى سماه عبدالله بن المبارك بـ "مخ العلم".

... والحق أن لأبي حنيفة آراءه المستقلة، وفكره الخاص الذي

ينم عن عقل رزين وفهم دقيق، يشهد بهما كل من طالع كتب الفقه الحنفي.

... وقد خاض أبو حنيفة في شتى المجالات، وأظهر في الآراء ما تفرد به في مجالات السياسة، وعلم الكلام، والإيمان والقدر وأعمال الإنسان، وغير ذلك.

... ولم يكن فقه أبي حنيفة منعزلاً عن الناس والحياة، بل كان "يغشى الأسواق، ويتجر، ويعامل الناس، ويدرس الحياة كما يدرس الفقه والحديث"؛ ومن ثم كان خبيراً بأصول المعاملات، مدركاً لأسرارها والمؤثرات التي تؤثر فيها.

... من أجل هذا كله كُتِبَ لفقه أبي حنيفة أن يبقى راسخاً على مر السنين والأعوام، واشتهر في العديد من البلاد والأقطار الإسلامية، فرحمه الله رحمة واسعة.

أصول المذهب الحنفي:

ثمة أصول مجمع عليها بين فقهاء الحنفية بنوا عليها آراءهم واجتهاداتهم نشير إليها فيما يلي:

١- القرآن الكريم:

يعد أبو حنيفة من أوائل من بيّن وجوه دلالات القرآن الكريم، وقد اختلف مع الجمهور في عدة مسائل، أبرزها: قطعية دلالة العام، وعدم الأخذ بمفهوم المخالفة.

٢- السنة:

وهي الأصل الثاني الذي اعتمد عليه أبو حنيفة وفقهاء مذهبه في الاستنباط، وهي تلي القرآن في الرتبة.

وقد قامت معركة بين الفقهاء في مقدار اعتماد أبي حنيفة في استنباطه الفقهي على السنة، حتى لقد زعم البعض الذين نقصوا مقدار ذلك الاعتماد أنه كان يقدم القياس على السنة.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: لقد رُمي أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - في حياته بمخالفة السنة؛ وأكثر الذين أرادوا انتقاص قدره بعد وفاته من ذكر ذلك، ولقد نفى هذه التهمة عن نفسه؛ فقد كان - رحمه الله - يقول: " كذب والله وافترى علينا من يقول: إننا نقدم القياس على النص، وهل يُحتاج بعد النص إلى قياس؟! " ففي هذا النص يضع أبو حنيفة الأمر في موضعه، فهو يقول: إنه لا يلجأ إلى القياس إلا عند عدم العثور على النص، فإن عثر عليه لم يكن ثمة حاجة إلى قياس.

بل لقد صرح بذلك في قوله: " نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك أننا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسنة أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلاً قسنا حينئذٍ مسكوتاً عنه على منطوق به " .

وروى عنه: " إنا نعمل أولاً بكتاب الله، ثم بسنة رسول الله، ثم بأحاديث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم " .

٣- الإجماع:

ويمكن تعريف الإجماع بأنه: اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر على أمر من الأمور.

وقد ذكر علماء المذهب الحنفي أن أبا حنيفة كان يعتبر الإجماع أصلاً في أصول فقهه التي بنى عليها اجتهاده، وقد نص هؤلاء على أن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يأخذون بالإجماع في شتى طرائقه، فهم يأخذون بالإجماع القولي، والإجماع السكوتي، فيعدون الأول حجة قطعية، والثاني حجة ظنية.

... وقد رتب بعض علماء الحنفية ومنهم البزدوي الإجماع من حيث قوته وما يترتب عليه النحو التالي:

أولاً: إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - الذي نقل إلينا متواتراً على حكم شرعي وهذا يكون حكمه حكم الكتاب والسنة المتواترة في

وجوب العمل به ويكفر جاحده.

ثانياً: إجماع التابعين وتابعيهم، فهو بمنزلة الحديث المشهور ووجته ظنية لما فيه من شبهة الخلاف، فيكون منكراً جاحداً لا كافراً.

ثالثاً: الإجماع المنقول بطريق الأحاد، ومثله الإجماع السكوتي الذي لم تقم قرينة تدل على أن سكوت المجمعين كان للموافقة. فلا يحكم بكفر منكره أو تضليله.

٤- قول الصحابي:

... كان أبو حنيفة يأخذ بقول الصحابي أو فتواه، ويعده حجة واجبة الاتباع، وكان - رحمه الله - إذا اجتهد في موضوع كانت للصحابة آراء فيه، يختار من بينها، ولا يخرج عن آرائهم إلى غيرها، فإذا لم يكن رأيي اجتهد، ولم يكن أبو حنيفة يأخذ بقول التابعي؛ فهو لا يقلد التابعي ولكن يقلد الصحابي.

... وقد أثر عن أبي حنيفة أنه قال: "أخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله (أخذت بقول أصحابه، أخذت بقول من شئت منهم، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم. فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب - وعدد رجالاً - فقوم اجتهدوا، فاجتهد كما اجتهدوا".

٥- القياس:

... وقد فاقت شهرة أبي حنيفة في الأخذ بالقياس جميع من سبقه؛ لما اتصف به في الدقة وسرعة الخاطر في إدراك ما يكون بين الأمور من التشابه والاختلاف.

وقد عرّف العلماء القياس الذي اعتمده أبو حنيفة وأكثر منه في اجتهاداته بأنه: بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة أو الإجماع؛ لاشتراكه معه في علة الحكم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

... ” ولقد كان مسلك أبي حنيفة في فهم النصوص يؤدي إلى الإكثار من القياس إذ لا يكتفي بمعرفة ما تدل عليه من أحكام، بل يتعرف من الحوادث التي اقترنت بها، وما ترمي إليه من إصلاح للناس، والأسباب الباعثة، والعلل التي تؤثر في الأحكام وعلى مقتضاها يستقيم القياس ”.

٦- الاستحسان:

هو عدول المجتهد عن مقتضى قياس جلي إلى قياس خفي أو عن حكم كلي إلى حكم استثنائي لدليل انقح في عقله رجح لديه هذا العدول.

والاستحسان نوعان: الأول: ترجيح قياس خفي على قياس جلي بدليل. والثاني: استثناء جزئية من حكم كلي بدليل.

والحق أن أبا حنيفة وإن لم ينفرد بالاستحسان على التحقيق إلا أنه يعتبر أكثر الأئمة أخذاً له.

قال محمد بن الحسن الشيباني: ” إن أصحابه كانوا ينازعونه المقاييس، فإذا قال: أستحسن، لم يلحق به أحد ”.

٧- العرف:

قال الغزالي: ” العرف والعادة: ما استقر في النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول ”.

وكان أبو حنيفة إذا لم يمض له قياس ولا استحسان في المسألة نظر إلى ما عليه تعامل الناس، وتعامل الناس هو العرف الجاري بينهم، فهو يأخذ بالعرف إذا لم يكن ثمة نص من كتاب أو سنة ولا إجماع، ولا حمل على النصوص بطريق القياس أو الاستحسان بكل طرائقه، سواء أكان استحسان قياس أم استحسان أثر أم استحسان إجماع أو ضرورة.

وفي الجملة فإن أبا حنيفة قد أخذ بالعرف مصدرًا من مصادر الاستنباط، وأصلاً من الأصول يرجع إليه إن لم يكن سواه.

٨- المصالح المرسلة والاستصحاب:

... عَرَفَ الإمام الغزالي المصلحة بقوله: " وأما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشارع، ومقصود الشارع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقولهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما تضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعه مصلحة وهي المصالح العتبرة من الشارع."

والمصلحة المرسلة هي التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها، ولم يدل دليلاً شرعي على اعتبارها، أو إلغائها.
والاستصحاب:

... لغة: من المصاحبة، وهي الملازمة، وعدم المفارقة.

... واصطلاحاً: ثبوت أمر في الزمن الثاني، بناء على ثبوته في الزمن الأول؛ لفقدان ما يصلح للتغير.

... وقد عمل أبو حنيفة أيضاً بهذين الأصلين في حدود معينة.

وكان أبو حنيفة كريماً واسع الكرم، وتاجراً أميناً ماهراً، ظل يعمل بالتجارة طوال حياته، وكان له دكان معروف في (الكوفة) كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - يحب العمل حتى ينفق على نفسه، فكان يبيع الخبز (وهو نسيج من الصوف).

سمع أبو حنيفة رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل؛ فقال: والله لا يتحدث عني بما لم أفعل؛ فكان يحيي الليل صلاة وتضرعاً، فكان ورعاً، ولا يحدث بالحديث الذي يحفظه، ولا يحدث

بما لا يحفظ، وكان يتورع عن القسم خشية الهلاك، حتى إنه جعل على نفسه إن حلف بالله صادقاً أن يتصدق بدينار.

وكان واسع الصدر، هادئ الطبع في حديثه مع الناس، فلقد روي أن رجلاً قال له: اتق الله، فانتفض، وطأطأ رأسه، وأطرق.. وقال له: يا أخي، جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى، وكان يخاف عاقبة الظلم؛ لذا رفض تولي القضاء للخليفة المنصور العباسي.

ومات سنة ١٥٠هـ، وصلى عليه خمسون ألف رجل، ودفن في بغداد، ويقال: إنه مات في نفس الليلة التي ولد فيها الإمام الشافعي.

وأبو حنيفة هو مؤسس المذهب الحنفي، أحد المذاهب الفقهية الأربعة، وقد انتشر مذهبه في العراق والهند وبلاد المشرق، يقول عنه الشافعي: (الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة) وقال عنه النضر بن شميل: كان الناس نياماً في الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة، وقيل: لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح علمه عليهم، وقال عنه ابن المبارك: (ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة) وقال عنه يزيد بن هارون: (ما رأيت أحداً أحلم من أبي حنيفة) (١).

* * *

(١) المصدر: كتاب النكت في المسائل المختلف فيها بين الشافعي وأبي حنيفة.

الإمام مالك

من مشاهير أعلام المسلمين

الإمام مالك

هو أبو عبد الله: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث - وهو ذو أصبح - ابن سويد، من بني حمير بن سبأ الأكبر، ثم من بني يثُجَب بن قحطان، وفي نسبه خلاف غير هذا.

ولد سنة خمس وتسعين من الهجرة، ومات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، وله أربع وثمانون سنة.

وقال الواقدي: مات وله تسعون سنة، وله ولد اسمه يحيى، ولا يعلم له غيره.

هو إمام أهل الحجاز، بل إمام الناس في الفقه والحديث، وكفاه فخراً أن الشافعي من أصحابه.

أخذ العلم: عن محمد بن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ونافع مولى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)، ومحمد بن المنكدر، وهشام بن عروة بن الزبير، وإسماعيل بن أبي حكيم، وزيد ابن أسلم، وسعيد بن أبي سعيد المقبري، ومخرمة بن سليمان، وربيعة ابن أبي عبد الرحمن، وأفتى معه، وعبد الرحمن بن القاسم، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر - وليس بالقاضي - وخلق كثير سواهم.

وأخذ العلم عنه خلق كثير لا يُحصون كثرة. وهم أئمة البلاد. منهم: الشافعي، ومحمد بن إبراهيم بن دينار، وأبو هاشم المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبي حازم،

وعثمان ابن عيسى بن كنانة - هؤلاء نُظِّروا من أصحابه - ومَعْنُ بن عيسى القزاز، وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، ويحيى بن يحيى الأندلسي - ومن طريقه

روينا " الموطأ " - وعبد الله بن مسلمة القَعْنَبِيُّ، وعبد الله بن وهب، وأصبغ بن الفرَج، وغير هؤلاء ممن لا يحصى عدده.

وهؤلاء مشايخ البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وأحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهم من أئمة الحديث.

قال مالك (رحمة الله عليه): قَلَّ مَنْ كَتَبْتُ عَنْهُ الْعِلْمَ، مَا مَاتَ حَتَّى يَجِيئَنِي وَيَسْتَفْتِيَنِي.

وقال بكر بن عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس، فجعل يحدثنا عن ربیعة بن عبد الرحمن وكنا نستزيده من حديثه، فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربیعة، وهو نائم في ذلك الطاق؟ فأتينا ربیعة فأنبهنها، وقلنا له: أنت ربیعة؟ قال: نعم. قلنا: الذي يحدث عنك مالك بن أنس؟ قال: نعم. قلنا: كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟! قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حمل علم؟.

وكان مالك مبالغاً في تعظيم العلم والدين، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه، وسرَّح لحيته، واستعمل الطيب، وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة، ثم حدث، فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

ومر يوماً على أبي حازم وهو جالس، فجازته، فقيل له، فقال: إني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

قال يحيى بن سعيد القطان: ما في القوم أصح حديثاً من مالك. وقال الشافعي (رحمه الله): إذا ذكر العلماء، فمالكُ النجم، وما أحدٌ أمَّنَ على من مالك (رحمة الله عليه).

وروي أن المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره، ثم دس عليه من يسأله، فروى على ملاً من الناس " ليس على مستكره طلاق " فضربه بالسياط، ولم يترك رواية الحديث.

وروي أن الرشيد سأل مالكا فقال: هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر بها داراً، فأخذها ولم ينفقها. فلما أراد الرشيد الشخص، قال لمالك: ينبغي أن تخرج معي، فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال: أما حمل الناس على " الموطأ " فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا بعده في الأمصار، فحدثوا، فعند أهل كل مصر علم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة» وأما الخروج معك فلا سبيل إليه. قال رسول الله ﷺ: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» وقال: «المدينة تنفي خبثها» وهاذي دنانيركم كما هي، إن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها. يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعتني إلى، فلا أوتر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ.

وقال ابن معين: كان مالك من حجج الله على خلقه.

قال في مختصر المدارك قال أحمد بن حنبل: مالك أتبع من سفيان وسئل عن الثوري ومالك إذا اختلفا أيهما أفضه؟ قال: مالك أكبر في قلبي.

قيل له: فمالك والأوزاعي؟ قال: مالك أحب إلي وإن كان الأوزاعي من الأئمة.

قيل: فمالك والليث؟ قال: مالك، قيل: فمالك والحكم وحماد؟ قال: مالك، قيل: فمالك والنخعي؟ قال: ضعه مع أهل زمانه مالك سيّد من سادات أهل العلم وهو إمام في الحديث والفقه، ومن مثل مالك؟.

وقيل له: الرجل يريد يحفظ الحديث حديث من ترى يحفظ؟ قال حديث مالك فإنه حجة بينك وبين الله، وقال: رحم الله مالكا كان من الإسلام بمكان.

قال: وسئل ابن المبارك من أعلم أمالك أم أبو حنيفة؟ قال: مالك أعلم من أستاذي أبي حنيفة، وهو إمام في الحديث والسنة وما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك ولا أقدم عليه أحدًا في صحة الحديث، ولم أر أحدًا مثله انتهى.

وقال أبو عمر في أول التمهيد عن ابن مهدي: سئل من أعلم أمالك أم أبو حنيفة؟ قال: مالك أعلم من أستاذي أبي حنيفة يعني حماد بن أبي سليمان انتهى.

وقال الجلال السيوطي في حاشية الموطأ: قال ابن مهدي: سفيان الثوري إمام الحديث وليس بإمام في السنة، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ومالك إمام فيهما جميعًا.

وسئل ابن الصلاح في فتاويه عن معنى هذا الكلام فقال: السنة هنا ضد البدعة فقد يكون الإنسان عالمًا بالحديث ولا يكون عالمًا بالسنة.

انتهى وفي الديباج المذهب عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه حديث من يكتب وفي رأي من ينظر؟ قال حديث مالك ورأي مالك.

وقال ابن مهدي سأل رجل مالكًا عن مسألة فقال مالك: لا أحسنها، فقال الرجل: إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك: فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أنني قلت لك: لا أحسنها.

وفي مختصر المدارك قال: سأل رجل مالكًا عن شيء من علم الباطن فغضب وقال: إن علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف الظاهر فإنه متى عرفه وعمل به فتح الله له علم الباطن، ولا يكون ذلك إلا مع فتح القلب وتنويره ثم قال للرجل: عليك بالدين المحض، وإياك وبنيات الطرق وعليك بما تعرف، واترك ما لا تعرف.

وقال رضي الله عنه: طلب العلم حسن لمن رزق خيره، وهو

قسم من قسم الله عز وجل، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه.

وقال: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نورٌ يضعه الله في القلوب.

وقال الشافعي (رحمه الله): رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان، وبغال مصر، ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه، فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله، فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. وكم مثل هذه المناقب لهذا الطود الأشم، والبحر الزاخر^(١).

* * *

(١) المصدر: كتاب جامع الأصول - (١ / ١٨٠).